

لولا الاسلام لما أصبحت العرب عالمية

للوازن محمد شيت خطاب

عضو المجمع العلمي العربي ببغداد
وعضو اللجنة المجتمعية بالرباط

- 1 -

كان من فضل الاسلام على العرب ، انه وحد صفونهم ، ووحد كلمتهم ، واسع نفهم الضبط والنظام ، وخلق فيهم انسجاما فكريا ، فأصبحوا يعملون تحت راية عقيدة واحدة ، لتحقيق هدف واحد ، هو اعلاء كلمة الله .

كانتوا قبل الاسلام ضعفاء ، فأصبحوا بالاسلام اقوياء ، وكانتوا قبل الاسلام متفرقين ، فأصبحوا بالاسلام موحدين ، وكانتوا قبل الاسلام مشركين ، فأصبحوا بالاسلام موحدين ، وكانتوا قبل الاسلام مستعبدن ، فأصبحوا بالاسلام ماتحين .

وكان العرب قبل الاسلام مختلفين سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وعسكريا ، مرفع الاسلام مكانتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية .

كان الفرس والروم سادتهم في العراق وارض الشام ، وحتى الاحباش كانت لهم صولة وجولة ومكانة في اليمن السعيد ، فأصبح العرب بالاسلام سادة الفرس والروم والاحباش وسادة امم اخرى لا تعد ولا تحصى من الصين شرقا الى قلب فرنسا غربا ، ومن سيبيريا شمالا الى المحيط الهندي جنوبا .

وكان العرب اقل حضارة ومدنية من الفرس والروم خاصة ، فأصبحوا بالاسلام قادة الحضارة العالمية ورواد المدنية في الدنيا .

وكانوا فقراء معدمين يسكنون الخيام في الصحراء فأصبحوا بالاسلام اغنياء موسرين يسكنون الحواضر على ضفاف الانهار .

وكانوا من الناحية العسكرية لا يطمئنون ان يحموا ارضهم من الفرس والروم وحتى من الاحباش ، فأصبحوا بالاسلام لا يطمئن احد في حماية ارضه من قوتهم القاهرة التي ملأت الارض ساحة ونورا وعدلا.

لقد كان للإسلام اثر اي اثر على العرب ، بدلهم من حال الى حال ، وجعل منهم امة لها مكانتها ولها اعتبارها ولها تأثيرها في سير الاحداث العالمية ولها كلمتها المسومة بين الامم .

ان الاسلام هو الذي جعل من العرب قوة ضاربة وجدت لها (منتضا) في الفتاح الاسلامي العظيم .

ولو لم ترتفع رايات الفاتحين شرقا وغربا ، لما كان للعرب المسلمين مكانة بين الامم في التواحسي السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية ، لذلك يمكن القول بأن اثر الاسلام عسكريا في العرب ، هو الاساس الاول لمكانتهم السامية بين الامم ، لأن الدول لا تحترم غير الاقوياء ، والقوى وحده هو الذي يستطيع أن يؤثر في سير الاحداث العالمية ، سواء كان هذا التأثير هدنه الخير للعالم كما فعل المسلمون الاولون ، أم كان هدنه الشر والخراب والدمار كما فعل جنكيز خان والثانية تدميرا والاستعمار باشكاله وصوره حينها .

بدينه على هدى ، ويعلمون العربية لغة القرآن الكريم ،
ويلقنون القرآن للناس عقيدة ولغة .

وبعد انحسار مد الفتح الإسلامي العظيم ، كان
هناك مد آخر لا يقل خطورة وأثرا وتأثيرا من مد الفتح
الإسلامي ، هو مد الفكر الإسلامي علوماً وأداباً
وفنوناً ، وكانت لغة الفكر الإسلامي هي العربية لغة
القرآن الكريم .

كان على كل مسلم من غير العرب ، أن يتعلم
العربية أو قدراً معيناً منها ، ليستطيع أن يصلى ويتفهم
مبادئ دينه الحنيف .

ويرز في ميدان قادة الفتح وقادة الفكر رجال من
غير العرب ، جعلوا العربية لغتهم واعتزوا بها ودافعوا
عنها وأهتموا بأمرها — لأنها لغة دينهم ولغة علّهم .

برز من قادة الفتح في ميدان المغرب العربي
وحده أبو المهاجر دينار وموسى بن نصير وطارق بن
 زياد .

ويرز في ميدان قادة الفكر ما يضيق عن الحصر ،
يكتفي أن نذكر منهم سيبويه أمام النحو والمصرف
والبخاري أمام الحديث الشريف وإبا حنيفة التعمان بن
 ثابت الكوفي أمام الفقهاء ... الخ ..

— 3 —

لقد كان للقرآن الكريم أعظم الآثر في انتشار اللغة
العربية ، حتى أصبحت في العالم لغة الحضارة والمدنية
ترونا طويلاً .

وكان للفتح الإسلامي العظيم أعظم الآثر في
انتشار اللغة العربية ، بحيث أصبحت لغة عالمية لها
 شأن حاسم في قيادة الحضارة العالمية .
وحين انتهت الفتح الإسلامي بعد أن بلغ مداه
 وحقق أهدائه ، بقي القرآن الكريمحارس الأمين
 للغة العربية وهمزة الوصل بين الشعوب الإسلامية .
 ولو لا الإسلام لما تأتي للغة العربية أن تنتشر في
 العالم ، فتؤثر في كل لغات العالم تقريباً .

وقد انتصر العرب بالاسلام ، مكان انتصارهم
انتصار عقيدة لا مراء .

وكان من بعض نتائج الفتح الإسلامي ، أن
العربية أصبحت لغة عالمية .

— 2 —

ولكن القول بأن انتشار اللغة العربية بين الأمم
الآخرى : كان نتيجة من نتائج الفتح لا يغنى عن كل
 قول .

فالواقع أن القرآن الكريم ، كان له أعظم الآثر في
انتشار اللغة العربية بين الأمم ، فهو كتاب الإسلام
الأول وكتاب العربية الأول أيضاً .

نزل القرآن الكريم بالعربية : (انا أنزلناه ترآنا
عرباً لعلكم تعقلون) (1) ، وقال تعالى : (وكذلك
أنزلناه ترآنا عرباً) (2) ، وقال تعالى : (قرآناً عرباً
غير ذي عوج لعلهم يتفهمون) (3) ، وقال تعالى : (وهذا
لسان عربي مبين) (4) ، وقال تعالى : (نزل به
الروح الآمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان
عربي مبين) (5) ، وقال تعالى : (وكذلك أنزلناه حكماً
عرباً) (6) ، وقال تعالى : (كتاب فصلت آياته ترآنا
عرباً لعوم يعلمون) (7) .

وخرج العرب المسلمون الذين اختزنتهم الصحراء
ترونا طويلاً : القرآن الكريم في يد ، والسيف في يد
 أخرى ، يدعون الناس إلى دينهم ويسخرونهم به ، فمن
 دخل فيه كان كأحدهم له ما لم ي عليه ما عليهم .

وكانت تعاليم الإسلام في القتال واضحة المعالم
 جازمة الاهداف : الإسلام ، أو الجزية ، أو القتال .
 وانتشر الإسلام بين الأمم انتشاراً عظيماً ، ودخل
 الناس في دين الله أفواجاً في فترة مد الفتح الإسلامي
 العظيم الذي ابتدأ سنة أحدى عشرة الهجرية (632 م)
 وانتهى سنة ثلاثة وسبعين الهجرية (711 م) ، وكان
 مع قادة الفتح الإسلامي وجنوده قادة الفكر الإسلامي
 وجنوده : يدعون إلى الله على بصيرة ، ويسخرون

- (1) الآية الكريمة في سورة يوسف (12 : 2) .
- (2) الآية الكريمة في سورة طه (20 : 112) .
- (3) الآية الكريمة في سورة الزمر (28 : 29) .
- (4) الآية الكريمة في سورة النحل (16 : 102) .
- (5) الآية الكريمة في سورة الشعراء (195 : 26) .
- (6) الآية الكريمة في سورة الرعد (12 : 27) .
- (7) الآية الكريمة في سورة فصلت (3 : 41) .

ولكن هذه الدعوات المريبة لن تتجزأ أبداً ، ما دام حارس العربية الأوحد وهو القرآن الكريم موجوداً وصدق الله العظيم : (انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون) (١) .

- 5 -

في عام 1964 زارت الباكستان برفقة الرئيس المرحوم عبد السلام عارف .

وصلينا الجمعة في مسجد (كراجي) الكبير ، وكانت خطبة امام الجامع بالعربية وحدها .

وبعد انتهاء الصلاة ، سال المرحوم الرئيس عبد السلام امام الجامع : « لماذا لا تخطب بالعربية والاوردية ليفهم السامعون من غير العرب ما تقول ؟ » واجاب الامام فوراً : « لا ادنس منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغة غير لغة القرآن الكريم » . ووتنتها همست في اذن الرئيس : « هل نحن قوميون أم هؤلاء ؟ » .

وأويننا الى دار الفيافة ، وجلسنا ليلاً تحدث وكان الخدم على باب الغرفة يتطاردون بحفظ القرآن الكريم .

واستقبلنا رئيس الجامعة الاسلامية في (دكا) عاصمة باكستان الشرقية بخطاب ، كان بلغة الجاحظ لا بلغة القرن العشرين .

وكان في نية حكومة الباكستان أن تتخذ العربية الفصحى لغة رسمية ولا تزال هذه نيتها حتى اليوم ، لو عاولت الحكومات العربية بصدق وأمانة واحلاص في هذا المجال .

ان كل مسلم على وجه الارض يقدس اللغة العربية ويفضلها على لغته الاصلية ، اذا كان هذا المسلم متزماً بتعاليم دينه الحنيف .

ذلك لانه يعتقد ، بأن العرب هم الذين نثروه من الفلامات الى النور ، وأنهم ابناء الصحابة الكرام وابناء قادة الفتاح الاسلامي العظيم وجنوده ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم منهم والقرآن الكريم بلغتهم ... وهذا ما كان يرددنه الباكستانيون على اسماعينا من الرئيس ايوب خان حتى أصغر رجل في الباكستان .

ان لغة القرآن الكريم ، قد خالطت كل لغات الشعوب الاسلامية وأثرت فيها أعظم التأثير .

والذين لا يعرفون التركية والفارسية والاوردية والبنغالية — مثلاً — يستطيعون حين يصفون الى المتكلمين بها ، ان يفهموا كثيراً من مفرداتها لأنها عربية خالصة .

وليس في ذلك عجب ، لأن شعوب تلك اللغات بعد اسلامها ، اقتبست من لغة القرآن الكريم الذي نثروه صباح مساء كثيراً من المفردات العربية الصحيحة .

ولكن العجب أن تنفو لغة القرآن شعوباً غير مسلمة ، فتجد في اللغة الانجليزية والفرنسية والالمانية ... الخ ... كثيراً من المفردات العربية .

والعجب من ذلك أن يؤلف مستشرق روسي حديث معجماً عن : اللغة العربية في اللغة الروسية !؟ لقد أصبحت العربية بعد الاسلام وبالاسلام لغة حضارة ، غمرت بأنوارها الدنيا وغطت كل اللغات في العالم تقريباً .

وكانت جامعات بغداد ودمشق والقاهرة وتونس والمغرب والاندلس ، هي الجامعات المعتمدة في العالم كله .

وكان طلاب العلم والمعرفة يقصدون هذه الجامعات من شتى أنحاء العالم .

وقد كان من خريجي جامعات الاندلس بعض الذين أصبحوا بابوات في روما .

فلما ضعفت العرب ضعفت العربية ، فليس الضعف في العربية ولكن الضعف في العرب انفسهم .

ولقد بذل الاستعمار التديم والحديث تصاريجه لترسيخ اندام الاستعمار الفكري في عقول العرب ونقوصهم ، فتشكل في مقدرة اللغة العربية وفق طاقاتها وبث ارجيفه دعوة للعامية ومطالبة بكتابة العربية بحروف لاتينية .

وهذه الدعوات مريبة دون ادنى شك ، هدفها جعل الشعب العربي شعوباً وجعل القرآن الكريم غير منهوم المعاني والمباني الا للذين يدرسون العربية الفصحى .

(١) الآية الكريمة في سورة الحجر (15 : ٩)

اعرف أنها مسلمة ، فأردت أن أكافئها بهدية نقدية جراء خدماتها ، ولكنها قالت لي : « لا أريد إلا أن تكتب لي بالعربية جلة : بسم الله الرحمن الرحيم ، لأخذها هدية ثمينة أقدمها لوالدتي المريضة في الصين » .

ولما كتبت لها هذه الجلة المباركة ، طسوت الورقة باعتناء واهتمام شديدين ، ثم تبليتها ووضعتها على مدرها بكل اجلال واحترام .. !

ترى ! هل يدرك العرب اليوم ، أهمية التمسك بالاسلام ، والدعوة الى التمسك به لحاضرهم ومستقبلهم ولصيরهم ؟ !

انهم بذلك يخدمون انفسهم قبل غيرهم ، ولكن ياليت قومي يعلمون !!

لقد رأيت بعيني رجلا باكستانيا أراد أن يتلمس أحذنا بيده فلم يستطع لشدة الإزدحام ، فما كان منه الا أن لوح بيده في الهواء نحونا من بعيد ثم لامس بيديه قلبه ووجهه لتناه (البركة) من العرب .

والمسلمون غير الملتفين بدينهم ، يعادون أول ما يعادون القرآن الكريم لغة وعقيدة ، وشواهد التاريخ الحديث كثيرة لا تعد ولا تحصى .

ان بين الالتزام بالدين الحنيف ، علاقة وثيقة بتبني اللغة العربية وانتشارها ، ما في ذلك ريب .

ولست أنسى يوم كنت مسافرا على متن طائرة صينية شبوانية عام 1964 ، فلمست من المضينة عنابة خاصة بي حين عرفت أنني عربي مسلم . ولم اكن

هؤلاء من يتنقل خارج الجزيرة العربية الى العراق والشام خاصة اما لاغراضه الشخصية او لغيرها مثل الاعشي وامرؤ التيس وكان في العراق قبل كل هؤلاء عرفت بالمانذرة بعد تأسيسهم دولة بهذا الاسم وجعلوا الحيرة عاصمة لهم وكانت في الشام دولة الفساسنة ولكن الغالب ان لغة هؤلاء ليست العربية كما ظهر ذلك في تنويع آثارهم فكانت تكتب بالaramية بعكس المانذرة فان جلهم من العرب كما فعل ذلك الاستاذ جرجي زيدان في كتابه « العرب قبل الاسلام » ، فاللغة العربية كانت محصورة ادنى في الجزيرة العربية وما حولها واستمر هذا الحال حتى القرن السادس الميلادي تكريبا ثم جاء الاسلام واخذ الرسول (ص) يدعو الى الدين الجديد داخل الجزيرة في اول الامر وكان القرآن الكريم هو دستوره فانتشر في عهد الخلفاء الراشدين بواسطة الفتوحات الاسلامية واتسعت رقعة نفوذه اكثر في مصر الاموية والعباسية حتى بلغ حدود الصين شرقا والأندلس غربا .

وبما ان لغة هذا القرآن هي العربية وان المسلمين ملزمون بقراءته فقد أصبح التلازم واضح في الاسلام واللغة العربية .

ورد علينا من الاستاذ كامل باقر الموسوي من الكوفة بالعراق جواب نقتطف منه ما يلي :

اللغة العربية موطنها الاصلي هو الجزيرة العربية وتعنى اللغة المتداولة من العصر الجاهلي حتى يومنا هذا اي اللغة العربية الشمالية (المصرية) حيث ان اللغة الجنوبية (القططانية او العميرية) قد انقرضت تماما عندما انفصلت عنها اخوها الشمالية وهي لغة الحجاز والبحرين واليابان ونجد، ولم يبق منها الا آثارها المتقوشة على خرائب اليمن ودولها القديمة في حين وسبا وحمير وكانت التقوش بالخط المسند وهي ابجدية مختلفة كل الاختلاف عما هو في لغة مصر التي منها لغة القرآن الكريم .

ومن المعلوم ان اللغة العربية قد اقتبست كلمات اعجمية أصبح بعضها وكانه عربي خالص ومن هذه الانفاظ ، قرطاس ، درهم ، دينار ، سجل ، كرسى قصر ، برسن ... الخ وقد دخلت بعض هذه الكلمات في الشعر الجاهلي وفي القرآن الكريم كذلك والمعروف ان انتشار لغة يتم عن طريق التدوين او تبادل الرسائل وما الى ذلك ، وكل هذا لانعرفه عن العرب قبل الاسلام سوى ما نقرأ عن الشعراء الجاهليين وكان من بين